

## الرحلة الصينية

- علي العربي

الرحلة في الأدب التونسي الحديث لها منزلتها ومكانتها بين فنون الأدب الأخرى كالشعر والقصة وفن المقالة. ويبدو أن الوزير المصلح خير الدين هو الذي فتح الطريق أمام الكتّاب التونسيين بكتابه "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك" فظهرت كتب عديدة في هذا الفن نذكر منها: صفوة الاعتبار لبيرم الخامس والرحلة الحجازية لمحمد السنوسي والرحلة الأندلسية للورداني.

ولما ظهرت الصحف الوطنية في أواخر القرن الماضي نشرت مجموعة من الرحلات التي قام بها بعض التونسيين إلى أوروبا أو إلى الشرق ويعود ذلك إلى رغبة هذه الصحف في إتحاف قرائها: إذ لم يكن لها مخبرون يوافونها بأخبار هذه البلدان، ولم تكن وسائل الاتصال متقدمة كما هي عليه الآن، فظهرت على صفحات الزهرة لعبد الرحمن الصنادلي (1865-1935م) وجريدة الحاضرة لعلي بوشوشة (1859-1917م) من الرحلات، من بينها الرحلة الصينية لعلي الشتيوي.

ونريد أن نهتم بهذه الرحلة لأنها مجهولة لدى أغلب القراء، ويعود ذلك إلى أنها نشرت في جريدة أسبوعية مرّ على ظهورها الآن قرابة القرن، كما أن صاحبها ليس من رجال الأدب والفكر إذ هو من رجالات الجيش.

والحق أننا لا نعرف عن هذا الرجل الشيء الكثير، وغاية ما يمكن أن نذكره أنه من مواليد القلعة الكبرى بجهة الساحل، سافر إلى الهند الصينية في أوائل هذا القرن ضمن البعثة العسكرية الفرنسية<sup>1</sup>، وقد سجّل ملاحظاته عن هذه الرحلة منذ خروجه من مدينة سوسة حتى وصوله إلى ميناء هاينونغ بفيتنام. أما القسم الثاني فقد خصّصه للحديث عن الناحية الاجتماعية بهذا البلد.

---

<sup>1</sup> توجت هذه الرحلة بحصول الضابط علي الشتيوي بوسام الشرف مكافأة له على حزمه وإخلاصه في الخدمة العسكرية، الحاضرة، 3/جانفي 1905م.

## مجلة الهند

وسنتتبع مراحل هذه الرحلة، ونحاول في آخر الأمر تقييمها وإبراز فوائدها من الناحية الاجتماعية والثقافية.

### أسباب الرحلة:

كتبت جريدة الحاضرة- التي نشرت هذه الرحلة-<sup>1</sup> تمهيداً بيّنت فيه أسباب هذه الرحلة فقالت: "لا يخفى ما للدول الإفريقية من السعي المستمر في تقوية نفوذها السياسي وتوسيع نطاقها التجاري بالممالك المتأخرة في مضمار الترقّيات العصرية سواء في ذلك الممالك الإسلامية وغيرها، ومن المعلوم أيضاً أن تلك الدول بعد أن وضعت يد السلطة أو الحماية على كثير من الأقطار بآسيا وإفريقيا التفتت إلى بلاد الصين فرأت قطراً فسيحاً وخلقاً عظيماً قضى تأخرهم الصناعي باستجلاب البضائع الإفريقية ليتسنى بذلك للدول أن تتخذ بها منافذ لرواج تجارتها".

وحسب الحاضرة فإن دولة الصين مع كثرة رعاياها واتساع ممالكها من أضعف الدول لمحافظتها على التراتيب الحربية العتيقة والأسلحة التي أخنى عليها الدهر، وعدم الأخذ بأسباب الاستعداد على مقتضى الوقت والحال. وإزاء هذا الاختلال والضعف أخذت روسيا تنقص الصين من أطرافها الشمالية، وجاورتها فرنسا من جهة الطونكان، وانقلترا من جهة الهند، واستحوذت الدول الأوروبية على الموانئ والثغور الصينية، أرسلت مجموعة من الرهبان على اختلاف مذاهبهم لنشر الديانة المسيحية فاعتنقها بضعة آلاف، فتذرعت الدول الأوروبية بحمايتهم من بني جلدتهم الذين كوّنوا جمعيات سرية للتخلص في أن واحد من استبداد حكومتهم ومن وطأة التداخلات الأجنبية. وظهرت بوارق تلك الثورة في الفتك بالصينيين المتنصرين وبالرهبان القسيسين، ثم تعرضوا لرعايا الدول الأوروبية فحاصروا السفراء في منازلهم ومن بينهم ستيفون بيشون (المقيم العام الفرنسي بتونس بعد ذلك) ثم قتلوا سفير ألمانيا، ولما تبين للدول أن هذه الحركة موجهة ضد نفوذها، عولت على غزو الصين والانتقام من الثائرين فجهزت جيشاً بعثت به إلى الصين قوامه مائة ألف جندي دخلوا عنوة

<sup>1</sup> نشرت على صفحات الحاضرة ابتداءً من العدد 683، الصادر في 11/فيفري 1902م حتى العدد 696، 13/ماي 1902م، في تسع صفحات.

## مجلة الهند

مدينة بيكين واستولوا على بقية المدن. ونكّلت هذه الجيوش بأهالي الصين تنكيلاً تناول المجرم والبرئ.

وكانت فرنسا أثناء تلك الحوادث قد حشدت عساكرها من أقرب النقاط المجاورة للصين ثم اضطرت إلى تعويض ما نقص من تلك الحامية بطوائف من عساكرها بتونس والجزائر فكان من جملتهم طابور من الآي الترايور الرابع الضارب بالمملكة التونسية، وأغلب هؤلاء الجند من المسلمين تحت أمره ضباط من الفرنسيين. أما المسلمون فلا يتجاوزون رتبة الملازم ومن هؤلاء صاحبنا علي الشتيوي.

ويبدو أنه كان طلعة يجب الإسفار وركوب الأخطار، يقول في مقدمة رحلته: "كنت من المشتاقين من التونسيين إلى استطلاع غرائب الأخبار واستكشاف عجائب الآثار والوقوف على أخبار سكان الشرق عموماً وخصوصاً المسلمين ساكني تلك الأقطار حتى سنحت فرصة إرسال نجدة من عساكر الترايور إلى بلاد الهند الصيني فحرّكتني الأشواق وأملت الانخراط في سلك المسافرين إلى تلك الآفاق".

### بداية الرحلة:

"وفي العاشر من نوفمبر 1901م ركبنا متن الفابور الحربي (كشار) بعد أن اختبر قائد العساكر أحوال الضباط الأنفار"، وكان ذلك من ميناء سوسة "فلما تحركت الدارعة باسم الله مجراها ومرساها أطلقت المدافع إيذاناً بالرحيل وتنوياً بهذا السفر الجليل فبقيت الأنظار شاخصة إلى معاهد الديار إلى أن غاب الأفق عن الأبصار".

ولما توارت السواحل التونسية شعر الجنود بغصة في القلب وحسرة في النفس على مفارقة الوطن الحبيب. وكان محمد ابن الخوجة قد أحسن قبل ذلك بهذا الشعور عند سفره إلى باريس، فقال على لسان بعض الأدباء التونسيين:

يا شاطئ المرسى السلا م عليك يا نزهة العيون

وبعد أربعة أيام وصل الشتيوي وصحبه إلى بورسعيد.

## مجلة الهند

### بورسعيد:

لفت انتباه الشتوي أذان الصبح بصوته الرخيم وتلاوة القرآن، فأخذ ذلك بمجامع قلبه، فصعد مع رفيق له الصومعة لما اعتراه من الخشوع، ورأى دين الإسلام قائماً والناس مقبلين على الصلاة، ودخل فصلّى صلاة الفجر في الجامع الأكبر.

أما سكان بورسعيد فهم أناس أتوا من كل فج عميق يتكلمون جميع اللغات لاسيما الإنكليزية والعربية، وصناعتهم في الغالب التجارة، وبضائعها من غرائب مصنوعات الترك ومصر تباع بأثمان زهيدة، وأحياء المدينة نظيفة إلا أحياء الأهالي فوسخة، وغالب السكان المسلمين تكثر فيهم الفاقة إلا بعض الذوات من أرباب الخطط الإدارية والشرعية، وأسواقها دافقة بالنساء المصريات اللواتي ينتظرن عملاً يأتيه بحسب مقدرتهن.

ومرسى بورسعيد فسيح كثير الحركة والنشاط ترسو به البواخر الحربية والتجارية، وعلى الأرصفة جبال من الفحم الحجري. وقد زار الشتوي باخرة عسكرية عثمانية متوجهة إلى اليمن، فتذاكر مع بعض رجالها، ورأى من حسن التنظيم وكمال التهذيب في هذه الباخرة الحربية ما سرّه. ولما عاد إلى باخرته التقى بقتل فرنسا بالمكان، وهو رجل يحسن اللسان العربي، ذكر له أنه أقام بالقطر التونسي خمس عشرة سنة، وذكر له أسماء عائلات تونسية يعرفها الرجال. وفي ترعة السويس ألقى جندي تونسي بنفسه في البحر، ولما وصل إلى البر، ودّع أصدقاءه بالإشارة. وتعجب الشتوي من هذه البواخر الراسية في البحيرة المالحة، وسمّاها بالدواهي العظمى فخامة وجسامتها تتحوّل في دياجير الظلمات، وكان لها شواظ من الأنوار الكهربائية تنيرها من كل جانب.

ولم يستطع الشتوي النزول إلى مدينة السويس لضيق الوقت، وفي البحر الأحمر الذي استمرت السفينة فيه يومين واجههم بيت الله الحرام فيمّموه بقلوبهم وقرأوا ما تيسّر من القرآن الكريم، ولم يحدث في هذين اليومين "إلا موت جندي أدرج في أكفانه وهي خيشة من قماش الغراير، يحملها أربعة من العساكر يرمونها في قعر البحر مثقلاً برزة من حديد وهو منظر تنفطر له الأكباد ويرق له القلب الجماد".

## مجلة الهند

وقبل الوصول إلى كولومبو مات نفران من الجنود، فأما الأول فقد دفن في جزيرة بريم<sup>1</sup>، وأما الثاني فقد ألقى في البحر طعاماً للحيتان الجائعة.

### كولومبو:

وصلت السفينة بعد عشرين يوماً من انطلاقها إلى كولومبو، وهو ميناء آسيوي تابع لحكم الإنقليز، تركن إليه البواخر الأوربية. وصادفت الشتوي وهو في شوارع كولومبو عربات صغيرة أعدّها الأهالي لنقل الركاب يجرها أفراد من فقرائهم مكشوفو الرؤوس قد أرسلوا شعورهم وشدّوها بمشط، لا تستر عورتهم إلا خرقة قماش، وهم أهل قوة وصبر على المكاره.

وكولومبو أشبه بمدينة أوربية إلا بعض أحياء يسكنها الأهالي باقية على اعوجاج طرقاتها والأحياء الأوربية تشتمل على منازل منمقة وحدائق غناء ومبانٍ شاهقة. وهي مركز تجاري هام، وقد لاحظ الشتوي أن أسعار العيش منخفضة بهذه البلاد، وإن كانت أرفع من أمثالها بالديار التونسية- كما يقول- وغالب سكانها من أغنياء المسلمين الهنود يتجرون في منسوجات الحرير والجواهر، ولهم تمسك قوي بالإسلام دين الأهالي ولذلك تكثر فيها الجوامع؛ ولكن لا توجد بها زوايا- وقد كانت منتشرة بالإيالة التونسية- وجميع أهاليها سنيون، وقد صلى الشتوي وصحبه صلاة الجمعة بجامعها الأكبر، وفي هذا الوقت تعطل جميع الأعمال<sup>2</sup>، يقول: "فلما دخلنا الجامع التفت إلينا الناس باغين ناطقة بالفرح والسرور، ولما تمت الصلاة أقبل علينا أولئك الإخوان وحيّونا بالسلام فرحبوا بنا واحتفلوا بنا احتفال الكرام وأظهروا سرورهم من ملاقاتنا، وكان قد اجتمع لصلاة الجمعة نحو ستّة آلاف نفس فسألونا هل نحسن القراءة والكتابة بالعربية فسررنا لهم بعض آيات من القرآن العظيم كانت باعثة على زيادة فرحهم فسألناهم عن جبل السرنديب مهبط آدم أبي البشر؛ فأخبرونا بموقعه وأعلمونا بساعة نزوله من السماء يوم الجمعة بعد غروب الشمس، وقالوا لنا إنه في كل وقت تنبعث من أرجاء ذلك الجبل رائحة ذكية يضوع نشرها في الأفاق، وفي الغالب تنزل الرحمة ويكثر المطر، ثم صافحونا وسار

<sup>1</sup> جزيرة تابعة لعدن

<sup>2</sup> عملاً بالآية الكريمة "يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع"، سورة الجمعة: 9

## مجلة الهند

بنا بعضهم لمشاهدة بعض الدكاكين والناس تزدهم حولنا وهؤلاء القوم من مسلمي الهند يبالغون في إكرام الضيف وتعظيمه ويتجاهرون بذلك أقل من عرب إفريقيا فدعونا للضيافة وشرب المبردات فشكرنا سعيهم واعتذرنا".

وزار الشتوي المعالم الدينية البوذية في هذه المدينة، وهي هياكل متقنة البناء مزخرفة بألوان الزينة. وبها أصنام بوذة<sup>1</sup> وبقية آلهتهم. وكان جميع البوذيين ينظرون إلى هؤلاء الجنود شزراً، ولم يفوهوا ببنت شفة، ولم يذكر الشتوي سبب احتقار البوذيين لهم. ولعل أتباع بوذا، وهم يمثلون الرحمة والأخوة بين بني الإنسان يمقتون المحاربين، والحرب تنتشر الدمار وتكون سبباً للبغضاء بين البشر.

ولما توغلت السفينة في عرض المحيط أظلتها غمامة من ظلمات الليل فأزعجهم قعقة الزوابع حتى قلّ سير الباخرة، واستعدّ من فيها لتحمل أهوالها وخالوا أنفسهم على وشك الهلاك فكان الخطب جلاً، ولما انقشعت تلك الزوابع عادت لسيرها في لجة البحر.

### سنغافورة:

هي حسب الشتوي مدينة عظيمة تكتنفها الغياض والبساتين النظرة. ولم يتمكن هو وصحبه من الوصول إليها إلا بعد عناء طويل لوعورة مضائق ترعتها، ويعود جمالها إلى حسن موقعها، ويأتيها السيّاح والتجّار من كل فج عميق. وقد طاف الشتوي في المدينة مع رفقائه على عربات صغيرة يجرها حمالون قالوا إنهم من أتباع علي بن أبي طالب، فطلبوا من بعض الحمالين أن يسيروا بهم إلى ضريحه للتيمن ببركاته فتبيّن أنهم من أتباع شيخ هندي تاجر يحسن العربية فأحسن وفادتهم بمنزله الرحيب، وهذا الإكرام سنة متبعة وعادة جارية عند كرام مسلمي الهند.

ولما صلّى الجمعة تجوّل الشتوي في مناكب المدينة وأسواقها، فكانت عامرة بدكاكين الصينيين والهنود الذين يرسلون شعورهم فوق أكتافهم، ويأكلون الطعام بعيدان، وغالب مؤونتهم من الخضر والسمك ولحم الخنزير وبعد أن تفسح

<sup>1</sup> من حكماء الهند، أسّس الديانة البوذية. عاش في القرن السادس قبل المسيح.

## مجلة الهند

الجماعة في حديقة الحيوانات الكائنة بهذه المدينة عادوا إلى المركب. ودخلوا خليج الطونكان في 11/ ديسمبر من نفس السنة فساروا فيه يومي 11 و 13 منه.

وفي مساء 15/ ديسمبر ركب الجنود في قوارب تجارية سارت بهم في النهر الأحمر، وهو نهر رحيب تكتنف جوانبه الأشجار العالية والنباتات الكثيرة. ثم وصلوا إلى مكان عساكر الترايور، ودخلوا المنازل المعدة لهم وكان فراش العساكر من التين ونزول الضباط باوتيلات" وذلك بثغر هايفونغ.

### هايفونغ:

تجول الشتوي في المدينة ذات الشوارع المنتظمة والطرق الفسيحة والبناءات الأنيقة، فكانت بحق جامعة لمعدات الحضارة من كهرباء، وكل ما يحتاج المتحضر في مدينة عصرية.

أما أسواقها فكثيرة وعامرة تغلب عليها العفونة لكثرة ما يجمع من الأسماك التي هي قوام عيش أهلها، وغالبهم من الأفرنج والأهالي والصينيين، وفيهم بعض من مسلمي الهند، وغالب تجارتها بيد الصينيين- يهود الشرق كما يقول الشتوي-

ويتعاطى الأهالي الحرف الوطنية، أما دكاكينهم فليست بذات بال وأكثرهم من الخدمة والمستخدمين في الأعمال الوضيعة والأشغال الشاقة بأجرة تختلف في اليوم بين 25 و 40 صانتيماً ومساجينهم مكبلون في الأغلال مثقلون يشتغلون بالمدينة ويعاملون أقسى المعاملات. وغالب سكان هذه المدينة يحسنون التكلم باللغة الفرنسية.

وفي 19/ ديسمبر خرج الجنود أسفين لمفارقة تلك المناظر البديعة، والغياض ذات الرياحين الرفيعة، جنات تجري من تحتها الأنهار. ووصلوا إلى هانوي.

### هانوي وفيتري:

"هي حاضرة عامرة تحاكي هايفونغ في التقدم، تجارتها رابحة وصناعاتها ناجحة، يأهلها الأناميون والصينيون والعيش بها رخيص".

وقد عثر الشتوي في هذه المدينة على رجلين من تونس، أحدهما يدعى محمد بن سليمان والآخر يسمى ساسي بن ساسي في عسكر الترايور استوطننا هانوي وتزوجا من هذه المدينة.

## مجلة الهند

أما فيتري فهي بلدة تقع في خليج الطونكان، فتحها سنة 1885م الكومندان بيرنجي، وانتقل الجنود بعد ذلك للقيام بتمرينات في أدغال فيتنام وجبالها لمدة عشرة أيام، واجتازوا بعض المدن والقرى مثل (فوادفوي) و(دونغ لو) ذات المناخ الرديء. وقد رحّب الأهالي بهم ترحيباً حاراً، ولاقوا منهم كل رعاية وإكرام. وفي هذه الأثناء مات أحد التونسيين فغسل وصلي عليه ودفن في إقليم الطونكان.

وقد خصّص الشتيوي الجزء الثاني من هذه الرحلة للحديث عن عادات السكان وتقاليدهم. يقول "ومن غريب العوائد التي شاهدها في فيتنام أن المرأة الواحدة تنزوّج بثلاثة رجال بثمن بخس، قد لا يتجاوز الاثني عشر ريالاً أي أنها تعقد على ثلاثة رجال ولا تمكّن نفسها إلا من واحد، وتتكتّ العهد مع غيره، فتنفّص منه بالفرار" وهو سفاح محض حسب الشتيوي. وكثيراً ما تقضي هذه الحالة للخصام والشتّم والموبقات، ويكثر ذلك فيمن يرغب من العسكر.

"وأهالي الطونكان قصار القامة، ولكنهم متناسبو الأعضاء، يخنّالون ويتبرجون في مشيهم تغلب عليهم الرقة والرخاوة، يغلب على لونهم الاصفرار، شعورهم سود طويلة، يرسلها الرجال والنساء، وغالب الرجال لا ذقن ولا شارب لهم إلا المسنون منهم، يصفرون شعورهم عكفاً يشدونّها على قفاهم بعمامة سوداء منتظمة".

أما النساء فيصفرن شعورهم صفائر يلففنها على رؤوسهنّ بذيل ملون وإن كنّ حزينات يتخذنّ لذلك ذياً أبيض وغطاء الرأس قبعة كالمظلة في شكل منجل وغطاء رؤوس الرجال في شكل قمع يوضع على العمامة من قصب الهند، ولا فرق بين لبس المرأة ولبس الرجل وهو عبارة عن سروال واسع وسترة من قماش، ومن النساء من يتخذنّ الفستان والحصارة. وغالب الأهالي حفاة ومنهم من ينتعل بمست أو قبقاب، ويغلب على أعينهم السواد.

ويتحدث علي الشتيوي عن التجارة بإقليم الطونكان التي يقوم بها الصينيون فزاحموا الأوروبيين كما يزاحم الأهالي اليهود بالجزائر وتونس، وهم أقوياء البنية يرسلون شعورهم إلى مناكبهم أو يحلقون رؤوسهم إلا ذؤابة يصفرونّها بخيط من حرير. ومنهم الملبار يتجرون في المنسوجات والأقمشة أو

## مجلة الهند

يستخدمون حراساً عند الأفرنج وغطاء رؤوسهم أشبه ما يكون بالطربوش المصري. ودينهم الوثنية.

وبعد أن يتعرض إلى أعياد سكان فيتنام وأفراحهم ومعابدهم وأكبر آلهتهم "بوذا" وكيف يببالغون في نقش أصنامهم وزخرفتها، يذكر الأعمال التي يقوم بها الرجال والنساء على السواء، وعن الحياة الزوجية يقول الشتيوي: "وفي الغالب ترجع الزوجة للزوج ما أخذته منه من مال ومصاغ --- ومن عاداتهم التزوج بعدة نساء كل على حسب ثروته، ولكن الحكم للمرأة الأولى، وقد يتزوج الواحد بعشر نساء يعينه على التجارة، وأمّ الأولاد هي التي لها السيطرة على الأولاد وبقية الزوجات. وينتقل الإرث إلى الذكور دون الإناث، إلا إذا سمح الذكر بذلك. ومن العار أن تطلب المرأة هذا الإرث مع إختوتها<sup>1</sup>.

أما إذا مات من الأهالي أحدٌ فالعادة في الجنائز عندهم أن يحمل الميت بتابوت على نعش مكسو بالحريز، وعلى جسد الميت فنجانان وطبق يمثل الطعام الذي على الميت لبوذا في الآخرة. وقد يغالون في نقشه وجعل أطرافه على شكل سمكة، ويدرجون في الكفن صحفاً متضمنة اسم الميت ووظائفه، ويحمل النعش أربعة من الحمالين وراءهم اثنان من حاملي الرايات في موكب حافل بعزف المزامير وقرع الطبول، ويحملون أيضاً صندوقاً به جميع القربات لمعبودهم بوذا تضيئ عليه الشموع.

ويتحدث الشتيوي عن ولاية الجهات الذين يتولون جمع الجباية، فكل والٍ مستقل بعمله مسئول عنه، ولذلك يكثر فيهم النهب والارتشاء، وإلى جانب ذلك توجد مجالس عسكرية وعدلية، فالعدلية تحكم بالسجن والعقوبات البدنية كالسياط والعصا، إلا إذا أفدى المحكوم نفسه بأداء مبلغ من المال للعامل أو لرئيس المجلس أو قدم هدية للأعضاء بحسب العقوبة وثروة الفرد وحدّ الزنا عندهم القتل<sup>2</sup> وإلقاء الزاني في اليم، وفي حد القصاص يقطع رأس القاتل، وحدّ السرقة الجلد، وتكثر في حكاهم الرشوة، ويفضل الأهالي المجالس الإفاقية على حكم الوالي.

أما المدن الكبرى مثل هانوي وهايفونغ وتوران فنظر الأهالي للمحاكم الفرنسية المنتظمة. وتوجد ثلاث جهات من الطونكان خاضعة لزعماء لصوص الماء.

<sup>1</sup> يشبه عادات الإرث بالبلاد التونسية.

<sup>2</sup> على غرار أحكام الشريعة الإسلامية.

## مجلة الهند

وقد عاهدوا حكومة الحماية على الأمن بشرط أن يستقلوا بأخذ الجباية على تلك الجهات لأنفسهم.

ويقول الشتيوي عن أحكام الطلاق في بلاد فيتنام: "إذا حدث ما يوجب الطلاق بين الرجل والمرأة، يبحث حاكم البلاد عن أصل الخلاف، فإذا كان العيب من المرأة أسقطت صداقها وأولادها ومكاسبها للرجل، وإذا كان الرجل على الباطل تأخذ منه المرأة بعض الصداق وبناتها، وتترك له الذكور.

وكثيراً ما تفرّ المرأة إذا أحست بسخط الزوج عليها. ويحرّر رسم الطلاق شيخ البلد فيمضي فيه كل من الزوجين. وإذا ثبت الإثم على المرأة فإنها توثق كتفاً ويحلق نصف رأسها وتحزم بحزمة يرسم عليها لفظ خائنة، ولا يتزوج بها أحد بعد ذلك فتتخرط في سلك النساء المتعكرات<sup>1</sup>.

وقبل خطبة البنت يسأل الزوج عن مقدرتها للخدمة والتكسب لينتفع بها، ثم يرسل عجوزاً لخطبتها بدون أن يعلم بذلك أهله، ولا أهلها، فإذا رضيت أخبر بذلك أهله فيسعون في الزواج لدى أهلها، وفي اليوم المعين يقع عقد النكاح على يد شيخ البلدة، فيمضي فيه أهل العروسين، ويحتفل بهذا العقد نقباء المعابد. وهؤلاء النقباء لا يأكلون لحماً ولا سمكاً، وإنما يقتاتون من الخضر ولا يتزوّجون. ويقدم لهم الأهالي القوت، فيأخذون من مأكّلهم حصة لمعابدهم، ويرجعون الباقي لصاحبه، ويصومون في غرة كل شهر وفي الخامس عشر منه، وفي ذلك اليوم يعكفون على الدعاء والعبادة، ولهم مواسم دينية ومزارات ييمونها مقدسة عندهم يقضون بها ثلاثة أيام في الأكل والشرب والزيارة تقريباً إلى بوذا كجبل طام مهبط هذا الحكيم عندهم للأرض.

هذا أهمّ ما ورد في هذه الرحلة. ومن المعلوم أن كثيراً من التونسيين قد أخذوا إلى الهند الصينية، ومات الكثير منهم، ولم يرجع إلى الوطن إلا من أطال الله عمره وهذا القليل الذي عاد، لم يسجل أحد منهم ملاحظاته ومشاهداته عن بلاد الهند الصينية كما فعل صاحبنا الشتيوي.

والمأمل في الرحلة الصينية يلاحظ أن صاحبها اهتمّ بالمظاهر الطبيعية من أنهار وغابات ومناخ. ثم وصف المدن التي زارها من حيث تخطيطها

<sup>1</sup> يعني المومسات

## مجلة الهند

المساري وانتظام شوارعها. ولا ينسى الحديث عن الأحياء الأوربية من حيث اتساقها ونظافتها، ثم يتعرض إلى أحياء الأهالي فيبرز وساختها وضيقها. ويهتم بأسواق المدينة ونشاطها الاقتصادي.

أما العنصر الثالث الذي اهتم به الشتيوي فيتعلق بالحديث عن المعالم الدينية والأثرية سواء كانت إسلامية أو غيرها. ويشعر القارئ من خلال هذا الوصف بتدفق مشاعره وإحساسه الديني.

وبعد ذلك يتعرض إلى عناصر السكان من حيث أجسامهم ولغتهم ولباسهم ومعيشتهم ونشاطهم الاجتماعي وعوائدهم في الزواج وغيره ونظام الحكم لديهم، لم يبين العنصر السكاني الطاعي (وهم من الأروبيين) سياسياً واقتصادياً.

ولا ينسى الشتيوي- وهو في قلب فيتنام بين أزيز الرصاص والأخطار المحدقة به من كل جانب- وطنه وأهله، حتى كان هذه الرحلة مقارنة بين ما يعانيه سكان فيتنام من دمار وتخريب، وبين ما يعانيه وطنه من عدوان وقهر، فكل من البلدين تحت راية العلم المثلث أو ما يسمّى بالحماية الفرنسية.

وقد كانت معركة (ديان بيان فو) سنة 1954م التي انهزم فيها الفرنسيون نهاية لآلام التونسيين وأحزانهم.

والخلاصة أن هذه الرحلة التي كتبها ضابط في الجند لم تكن جيدة من حيث الصياغة الفنية، ولا نعتقد أنها في مستوى الرحلات التي كتبت بعدها بنصف قرن، ونعني بذلك الصين الحديثة للطاهر قيفة ورياح الشرق لمحمود المعموري.

بيد أنها تعبر عن اهتمامات ضابط تونسي وشواغله، وما لفت انتباهه في البلدان التي زارها في أول هذا القرن، فسجل ملاحظاته ومشاهداته بصورة عفوية وتلقائية ونشرها في صحيفة أسبوعية لإمتاع قرائها بنادر العادات وغريب التقاليد وطرافة السلوك البشري، ولعلها تلقي أضواء على الحياة الاجتماعية والسياسية في فيتنام في أوائل هذا القرن من وجهة نظر ضابط تونسي مثقف.